أَحَدٌ أَحَدْ

بقلم: د.مصطفى حسين بطيخة

تحدث العديد من الشعراء في هجاء الحكام المستبدين وقاموا بنعتهم بأقذع الصفات التي يستحقونها عن جدارة، فعلى سبيل المثال هجا المتنبي كافور الإخشيدي في قصيدته الشهيرة قائلاً:

أَكُلَّمَا اغْتَـالَ عَـبْدُ السُّـوءِ سَـيِّدَهُ ... أَوْ خَانَهُ فَـلَهُ فِيْ مِصْرَ تَمْهِيْدُ

صَـارَ الخَـصِّيُ إِمَـامَ الآبِقِيْنَ بِهَا ... فَالحُّرُ مُسْتَعْبَدٌ وَالعَبْدُ مَعْبُودُ

لَاتَشْتَرِي العَبْدَ إِلاَّ وَالعَصَا مَعَهُ ... إِنَّ العَبِـيْدَ لَأَنْـجَاسٌ مَنَاكِـيْدُ

ويجدر التنويه أن بعض المؤرخين كان لهم رأي أن المتنبي قد ظلم كافوراً وأن الأخير كان عادلاً في حكمه، على كل يختلف تقييم الحاكم ماقبل نشوء مفهوم الدولة بمعناها الحديث عن مابعدها.

وبالعودة إلى هجاء الحكام في عصرنا الحالي، ففي قصيدته الشهيرة "من وحي الهزيمة" يصف بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) الحكام المهزومين في حزيران 1967 **بقوله:**

رُتَـبٌ صِنْـعَةُ الـدَّوَاوِين مَاشَـارَكَ ... فِـيْـهَـا قَـرُّ الـوَغَـى وَالـهَـجِـيْـرُ

جَـبُـنَ الـــقَـادَةُ الكِـبَـارُ وَفَـرُّوا ... وَبَـكَى لِـلـفِـرارِ جَـيْـشٌ جَـسُـورُ

لَـمْ يُـعَـانِ الـوَغَى لِـوَاءٌ[1] وَلَاعَانَى ... فَـرِيـقٌ أَهْـوَالَـــهَـا وَمُـشِـيْـرُ

هُـزِمَ الـحَـاكِمُـونَ وَالشَّـعْبُ فِـي ... الأَصْفَادِ فَالحُكْمُ وَحْدَهُ المَكْسُورُ

يَسْتَجِيْرُونَ وَالكَرِيْمُ لَـدَى الغَـمْرَةِ ... يَـلْـقَى الـرَدَى وَلَايَسْـتَـــجِـيْـرُ

لَاتَسَـلْ عَنْ نَمِـيْرَهَا غُوطَةَ الشَّامِ ... أَلَـــحَّ الـصَـدَى وَغَـاضَ النَّـمِيْرُ

وَانْسَ عِـطْرَ الشَّـامِ حَيْثُ يُقِـيْمُ ... الظُّـلْمُ تَـنْـأَى وَلَاتَـقِـيْمُ العُـطُوْرُ

[1] كان حافظ الأسد يومها برتبة لواء.

نَحْنُ مَوْتَى وَشَرُّ مَاابْتَدَعَ الطُّغْيَانُ مَـوْتَـى عَـلَى الـدُّرُوْبِ تَـسِـــيْـرُ
كُــلُّ طَـاغٍ مَهْـمَا اسْـتَبَدَّ ضَعِيْفٌ كُــلُّ شُـعْبٍ مَـهْـمَا اسْـتَكَانَ قَدِيْرُ

أما عمر أبو ريشة فيتحدث عن حافظ الأسد في قصيدته "عودة المغترب" فيقول:

لَايَخْـدَعَـنَّـكَ دَمْـعُـهُ وَانْـظُرْ إِلى مَاسَـــالَ فَـوْقَ أَكُـفِّـهِ وَتَـجَـمَّـدَا
سِكِّيْـنَهُ فِـي شِـدْقِـهِ وَلُعَـابُــهُ يَـجْرِي عَـلَى ذِكْـرِ الفَرِيسَةِ مُزْبِدَا
لَمْ تَشْرَبِ الحُمَّى دِمَاءَ صَـرِيْعِـهَا إِلَّا وَتَكْسُــو وَجْـنَـتَـيْــهِ تَـوَرُّدَا
تَــرَكَ الحُصُـونَ إِلَى العِدَى مُتَعَثِّراً بِفِـــرَارِهِ وَأَتَــى الحِمَـى مُسْتَأْسِدَا
مَـاكَانَ هُــولَاكُـــو وَلَاأَشْـبَاهُــهُ بِــأَضَــلَّ أَفْـئِـدَةً وَأَقْسَى أَكْبُدَا
هَـذِي حَمَـاةُ عَـرُوسَةُ الوَادِيْ عَلى كِبَـرِ الحِـدَادِ تُجِـيْلُ طَـرْفَـاً أَرْمَـدَا
هَـذَا صَـلاحُ الـدِّينِ يُخْـفِي جُرْحَهُ عَنْهَا وَيَسْأَلُ: كَيْفَ جُرْحُ أَبِي الفِدَا
مَاعَفَّ عَنْ قَذْفِ المَسَاجِدَ بِاللَّظَى فَتَـنَاثَـرَتْ رِمَمَـاً وَأَجَّـتْ مَوْقِـدَا
كَــمْ سُجَّــدٍ لِلَّــهِ فَـاجَـأَهُمْ وَمَـا كَــانُوا لِغَـيْـرِ اللَّــهِ يَـوْمَـاً سُجَّـدَا

ولاننسى الشاعر البعثي خليل الخوري الذي هرب من سوريا إلى العراق عند انقلاب صلاح جديد وحافظ الأسد في العام 1966 فيقول:

يَشْــكُو سِـوَايَ العُمْيَ وَالرَّمَدَا وَيَرَى الضَّلَالَةَ مِنْ عَمَاهُ هُدَى
أَهُــمُ الـرِّفَـاقُ أَكَـادُ أُنْـكِرُهُــمْ أَنْـكَرْتُـهُمْ أَنَـا لَاأَرَى أَحَـــدَا
أَنَا خِــلْـتُ اسْـرَائِـيْلَ غَـايَتُهُمْ لَمَّــا رَأَيْــتُ لِـوَاءَهُــمْ عُــقِدَا
وَسَمِـعْتُ دَبَّـابَـاتِـهِمْ هَـدَرَتْ فَمَــضَـيْتُ أَطْلُبُ مِثْلَهُمْ قَوَدَا
حَتَّـى إِذَا لَاحَ الصَّـبَـاحُ بِـهِمْ وَرَأَيْــتُ فِيْـهِمْ حَافِظَاً أَسَــدَا
لَاحَـافِـظَـاً عَهْـدَا وَلَا أَسَــدَا الكَــلْـبُ أَوْفَـى ذِمَّــةً وَيَــدَا
تَـارِيْخُ يَا تَارِيْخُ أَطْهَرُهُمْ وَغْدٌ فَـقُــلْ لِــلْمَـوْتِ أَنْ يَــفِـدَا

أما مظفر النواب العراقي فلم يبق أحد إلا وردد قصيدته عن اغتصاب القدس وقوله في الحكام العرب:

القُدْسُ عَرُوسُ عُرُوبَتِكُمْ

فَلِمَاذَا أَدْخَلْتُم كُلَّ زُنَاةِ اللَّيْلِ إِلَى حُجْرَتِهَا

وَوَقَفْتُمْ تَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ وَرَاءَ الأَبْوَابِ لِصَرَخَاتِ بِكَارَتِهَا

وَسَحَبْتُمْ كُلَّ خَنَاجِرِكُمْ ، وَتَنَافَخْتُمْ شَرَفَاً

وَصَرَخْتُم فِيْهَا أَنْ تَسْكُتَ صَوْنَاً لِلْعِرْضِ

فَمَا أَشْرَفَكُم!

أَوْلَادَ القَحْبَةِ هَلْ تَسْكُتُ مُغْتَصَبَه ؟!

أَوْلَادَ القَحْبَةِ

لَسْتُ خَجُوْلَاً حِيْنَ أُصَارِحُكُمْ بِحَقِيقَتِكُمْ

إِنَّ حَظِيْرَةَ خِنْزِيْرٍ أَطْهَرُ مِنْ أَطْهَرِكُمْ

ولكن لاأدري ماذا كان سيقول هؤلاء الشعراء لو أنهم عاشوا ليشهدوا جريمة القرن في سوريا بيد مجرم كبشار الأسد، هذه الإبادة الجماعية التي استمرت ثلاث عشرة سنة وعلى مرأى ومسمع من العالم المتحضر، وستبقى آثارها محفورة في ذاكرة السوريين لاتزول ويتوارثونها كأثر سكين تركه مجرم على وجه امرأة بعد اغتصابها، فلا تستطيع إلا أن تراه حين تنظر في المرآة. هل كان عمر أبو ريشة ليعيد توجيه بيته الشعري الشهير لبشار الأسد:

إِنَّ أَرْحَامَ البَغَـــايَا لَمْ تَلِدْ مُجْرِمَـاً مِثْلَ هَذَا المُجْـرِمِ

إنني في قصيدتي التالية لا أقوم بتوصيف حاكم ومجرم كما فعل الشعراء، بل أترك له أن يتحدث عن نفسه، وهذه القصيدة قد كتبتها في دمشق العام 2013، ثم أضفت لها الجزء المتعلق بأسماء الأخرس زوجة بشار في العام 2019 عندما أصبحت تظهر على الإعلام ممتلئة بالوقاحة الفجة والكِبَرِ الزائف:

أَحَدٌ أَحَدْ

أسَـدٌ وَأبقَى لِلأبَـدْ

مِنْ نَسلِ هُولَاكُو أَنَا

قَدْ كانَ يَأمرُ بالبَـلدْ

فَـتُذْهَلُ كُلُّ مُرضِـعَةٍ

وَتَـنُوحُ أُمٌ في وَلَدْ

من نسلِ هُولَاكُو أَنَـا

وعلى يَدَيَّ دَمٌ جمَـدْ

قَدْ فِـقْتُ هُولاكُو أَنَـا

قَـتْلٌ وَتَشْريدٌ عَدَدْ

لادَمْعَ عِنديَ للضَّـحَايا

فَـكُلُّ مَنْ مَاتُوا زَبَـدْ

أَحَدٌ أحَدْ

صَـمَدٌ صَـمَدْ

وَأنا الـمُفَدَّى للأبدْ

****

مكتبة حسين بطيخة الالكترونية

أَحَدٌ أحَدْ

وعِنديَ مِنْ جُـنْدِي مَـدَدْ

غُوْطِي وَقُرْدِيُّ الجَّـمِيْلُ[2]

وَكُـلُّ عَـبْدٍ لِـي سَجَدْ

وَكُـلُّ صُـعْلُـوكٍ رَفَـعْتُ

وَكُلُّ غَـدَّارٍ حَـقَدْ

وَمِنَ الجِّرَاحِ صَـنَعْتُ عَرْشِيَ

وَرَقَصْتُ نَشْـوَى عَلَى جَسَدْ

وَمِـنَ الدِّمَاءِ مَلَأتُ كَأْسِيَ

مِنْ بَعْضِ مَاجُـنْدِي حَصَدْ

فأنَا الإِلَهُ وَذاكَ عَـهْدِيْ

أُعْـطِي وَأسْخَطُ مَنْ جَـحَدْ

****

أَحَدٌ أحَدْ

[2] أسماء لمشاهير كانوا يهتفون لبشار الأسد، أحدهما شيخ معمم والآخر شيوعي والمفارقة اختلافهم الفكري واتفاقهم على حب بشار الأسد.

وَجَـدِّيَ مَنْ أَعْطَانِي اِسْـمَاً

كُـنْتُ وَحْشَـاً لَا أَسَدْ

شِـرْعَةُ الغَـابِ أُنَادِيْ

حَـيْثُ لِلحَـقِّ صَـفَدْ

كُـلُّ الثَّـعَالِبِ جِئْتُ حَوْلِيْ

وَكُـلُّ ذِي سُوْءٍ قَصَـدْ

أَعْشَـقُ الغَـدْرَ كَأفْـعَى

سُـمُّ نَـابِيَ كَمْ حَـصَدْ

لَـيْسَ فِي غَـدْرِي أَحَدْ

لَـيْسَ فِي حِـقْدِي أَحَدْ

لَـيْسَ فِي عُهْرِي أَحَدْ

آهِ عُـذْرَاً مِـنْكَ جَـدِّيْ

أَبْـقَى وَحْـشَاً لَا أسَدْ

****

أَسَدٌ أسَدْ

مكتبة حسين بطيخة الالكترونية

أَبَـدٌ أَبَـدْ

أَوْ سَـأحْرِقُهَا البَـلَدْ

هَذَا شِـعَارِي مِنْ قَـدِيْمٍ

قَدْ فِـقْتُ نَـيْرُونَ جُـنُونَاً

وَصَـارَ اسْـمِيَ ذِي رَدَدْ

قَدْ كَـانَ أَوْصَـانِيْ أَبِـيْ

كَمْ كَانَ قَـبْلِيَ قَـد وَقَدْ

أَنَّ الأَنَـامَ إِلَى زَوَالٍ

وَيَـبْـقَى عَـرْشِـيَ فِي خَلَدْ

هَـذِي رِسَـالَـتُهُ القَـدِيمَةُ

ذَاكَ قُـرْآنِـيْ القَدِيمُ

احْـرُقْ كَي تَـكُونْ

اقْـتُلْ كَي تَـكُونْ

وَجُـنُونٌ فِي جُـنُونْ

وَالـنَّارُ مِنْ طَـبْعِ الإِلَهِ

مكتبة حسين بطيخة الالكترونية

أُصْـلِيهَا مَنْ غَيْرِي حَمَدْ

أُعْطِـيْهِ مَـنْ ضَلَّ الطَّرِيْقَ

نَـارَاً وَحَـبْلَاً مِنْ مَسَدْ

فأنـا أسَدْ

أسَـدٌ أبَدْ

واليَـوْمَ أحْرِقُهَا البَلَدْ

****

عَشْـرُ سِـنِيْنَ

وخِـنْجَرُ السَّـفَّاحِ أشْحَذُهُ

عَـلى جَـسَدِ الضَّحِـيَّهْ

هِـيَ عَشْـرُ سِـنـينَ

وأنا أنْـظُـرُ للشَّـآمِ

كَمَا غَـزَالٍ

كَانَ يَـلْهُـو فِـي البَـرِيَّهْ

هِـيَ عَشْـرُ سِـنِينَ

مكتبة حسين بطيخة الالكترونية

وأنا أَعُـدُّ كِلاَبَ الصَّـيْدِ

وسُـيُوْفَاً طَائِـفِـيَّه

هِيَ عَشْـرُ سِـنِيْنَ

وَلَاشَـيءَ عِـنْدِيَ كَانَ يَـعْلُـوْ

فـَوْقَ صَـوْتِ المَجْـزَرَه

وَحُـمَّى الهَـمَجِـيَّه

عَشْـرُ سِـنِـيْنَ

وَأَنَا أَحْـلُمُ بِالقَـتْلِ

وبالجُـنُوْنِ

وبالجُـنُوْنِ

وبالجُـنُونْ

فَإِمَّا أَنْ أَكُـونَ

أو لاأكُـونْ

****

سَـقَطَ القِـنَاعُ عَنِ القِـنَاعِ

مكتبة حسين بطيخة الالكترونية

فَبَانَ عَنِّي وَجْهُ حَادِيْسَ[3]

المُجَلْجَلِ بالأفَاعِيَ وَالضِّبَاعِ

سَقَطَ القِنَاعُ عَنِ القِنَاعِ

وَوَجْهِيَ وَجْهُ مِيْدُوزَا[4]

يُحَجِّرُ كُلَّ قَلْبٍ

كُلَّ طِفْلٍ

كُلَّ أُمٍ

وَكُلَّ مِعْوَزٍّ وَسَاعِيْ

سَقَطَ القِنَاعُ عَنِ القِنَاعِ

وأنا لاأعْرِفُ الحُبَّ

وَعَرْشِيَ مِنْ دِمَاءِ الطَّيِّبِيْنَ

وتَاجِيَ مِنْ جِيَاعِ

واليَوْمَ أصْنَعُ مِنْ أجْسَادِهِمْ زَيْتَاً

يُضِيءُ العَالَمَ السُّفْلِيَّ

[3] رب العالم السفلي ومملكة الأموات عند الإغريق.

[4] ميدوزا عند الإغريق هي صاحبة الوجه الذي يحول كل من ينظر إليه إلى حجر.

حَيْثُ بِهِ قِلَاعِيْ

وَعَلَى أرْوَاحِهِمْ أَبْنِي سُجُوناً

وَفِيْهَا العَاشِقُونَ بِلاوَداعِ

وَفِيهَا صُلْبَانٌ رَفَعْتُ

لِكُلِّ مَسِيْحٍ جَاءَ دَاعِيْ

لِكُلِّ مَسِيْحٍ

كَانَ يَدْعُونِي لِعَقْلٍ

وَأنَا الجُّنُونُ وَلَاأُرَاعِيْ

أُجَنُّ أُجَنُّ

فَلِلأَحْرَارِ عِنْدِيْ

غَرِيْقَاً

لاسَفِيْنَاً أو شِرَاعِ

لامَنَارَاتٍ لَدَيَّ تُضِيءُ دَرْبَاً

هُوَ الخَسِيْسُ

مَنْ يَعْلُو بِقَاعِيْ

مكتبة حسين بطيخة الالكترونية

هَذَا عَالَـمِي وَكَذَاكَ فِكْرِيْ

ظَـلَامٌ فِي ظَـلَامٍ فِي اتِّسَاعِ

هَذَا أَنَا

وَحْـشٌ أَنَا

والشَّـامُ أُرْسِلُ فِي ضَـيَاعِ

****

عَظُمَ الحَرِيْقُ

وَلَقَّبُونِـي أَبَا لَهَبْ

وَامْرَأَتِـي حَمَّالَةَ الحَطَبْ

أَسْمَاءُ بِنْتُ الأَخْرَسِ

أُمُّ حَافِظَ لَاعَجَبْ

تَهْوَى طُيُورَ التِّيْنِ

وَالزَّيْتُونَ الـمُغْتَصَبْ

تَهْوَى الوَقَاحَةَ

فِـي الظُّهُورِ

مكتبة حسين بطيخة الالكترونية

بلَاأَدَبْ

حُبِّي لَهَا

فِي أَنَّهَا

لَاتَنْتَمِي وَبِلَا نَسَبْ

هِي بِنْتُ حِمْصَ

وَيَوْمَ حَرِيْقِهَا

رَقَصَتْ طَرَبْ

وَأَبُوهَا فَوَّازٌ

يُبَارِكُ لِلحَرِيْقِ

بِلَا عَتَبْ

أَمَّا أُمُّ أَسْمَا

سَلِيْلُ عِطْرِيَ مِنْ حَلَبْ

كَانَتْ تُنَادِينِيْ

أَنْ احْرِقْهَا وَقَلْعَتَهَا

مَامِنْ غَضَبْ

مكتبة حسين بطيخة الالكترونية

فَحَرَقْـتُهَا مِنْ سَاعَتِـيْ

وَأَذَقْتُ جَامِعَهَا اللَّهَبْ

آهِ يَاأَبَتِـي

وَلَقَدْ صَدَقْتَ

وَفَرْحَتِـيْ

أَنَّ أُمَّ حَافِظَ مِثْلَنَا

أَصْلٌ خَسِيْسٌ

لَاذَهَبْ

****

هِـيَ رُؤيَا

تُـطَارِدُنِي طَـوِيْلاً

وَسَـأَلْتُ أَصْـحَابَ العِرَافَه

أَنَّ الغُـرَابَ يَـجِئُ رَأْسِـيَ

لِـيُلْقِـيَ فِي وَجْهِي حِجَارَه

لِيَصْـنَعَ مِنْ عَـيْنِي وِكَارَه

مكتبة حسين بطيخة الالكترونية

أَنَّ الضِّـبَاعَ

تَحُـوْمُ حَوْلِيَ

لِتَـأْكُلَ جِيْفَـتِي المُلْقَاةَ عَلَى الطَّرِيْقِ

يَـدُوسَ فَوْقِـيْ العَـابِرُونَ

جَـمِيْعُ مَنْ كَانُوا غَرِيْقِيْ

آهِ يَاأَبَـتِـي

إِنِّـي رَأَيْتُ مَـلاَيينَ الكَوَاكِبْ

لَا الشَّمْسُ وَالقَمَرُ لِي يَسْجُـدَانْ[5]

وَأَنَا لَـيْسَ تُنْجِـيْنِي القَوَارِبْ

حِـيْنَ يَعْـلُو بِقَصْرِي الطُّوفَانْ

آهِ يَاأَبَـتِـيْ

وَحُـلْمِـيَ صَارَ يُـنْبِـئُـنِي

أَنَّ الشَّـآمَ تَـعُودُ يَـوْمَاً

إِلَى العَـهْـدِ العَـتِـيقِ

---

5 عن سيدنا يوسف عليه السلام في القرآن الحكيم: " **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**".

لاالظُّـلْمُ فِـيْهَا لَـيَـبْقَى

لاجُنُونِـيْ

وسَطْوَتِـيْ

وَحَرِيْقِيْ

وَاليَـومَ بَـابِيَ صَـارَ يُـطْرَقْ

وَأَنَـا أَعْـرِفُ خَـاتِـمَـتِيْ

وَكُـلُّ مَنْ عَهْدِي تَـمَـلَّقْ

هُـوَ الخَـازُوْقُ ياأَبَـتِـيْ

وَغَـدَاً يَـأتُـونَ قَـبْرَكْ

فَتَكُونُ جَـنْـبِيَ يَـاأَبِيْ

وَتَـدْفَـعُ عَـنْـكَ وِزْرَكْ

د.مصطفى حسين بطيخة

دمشق 2013

مكتبة حسين بطيخة الالكترونية